مطاردة قرن ونصف [1]

آية الله العظمى السيد محمد الشيرازي
قدس سره

مقدّمة المؤلّف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمّد وآلـــه الطيّبين الطاهرين .

قرنٌ ونصف وآل الشيرازي مطاردون من قبل الحكومات المتعاقبة، ولا أعلم قبل هذا الزمان ، كما لا أعلم أحوال أجداد الميرزا وأجداد أبي . وهنا أتذكّر بالمناسبة البيت المعروف :

مشرّدون نفوا عن عُقر دارهم

كأنّهم قد جنوا ما ليس يغتفر

وأتذكر ما قاله «نيكسون» في مذكراته: إنّ سبب قوّة أمريكا أنّها مستقرّة مائتي سنة .

إنّ الغرب سيطر على حكومة العثمانيين منذ أكثر من قرنين حيث بدَّلوا عمائم الجيش إلى طرابيش ، كما ذكرتُ تفصيل ذلك في كتاب مستقل في أحوالهم .

وهكذا أخذ عدم الاستقرار طريقه إلى تلك الحكومة وإلى حكومة القاجار أيضاً. ومن الواضح أنّ جهل الحكومتين وانسياقهم نحو ركاب الغرب وتركهم الإسلام أدى بهم إلى الانهيار .

وفي كـــربلاء المقدسة وحتّـــى الحال الحاضر لا زالت محلّة اليهود وحمام اليهود وشارع المومسات قائمة ، ممّا يدلّ علـــى أنّ العثمانيين ما كـــانوا يأبهون لأحكام

---

(١) ملاحظة: أخذنا نص هذا الكتاب من الانترنيت موقع الإمام الشيرازي قدس سره، ولابد من مطابقته مع الأصل المطبوع للتأكد من سلامته وعدم التغيير والحذف والتبديل فيه.

الإسلام التي حرَّمت الزنا ، هذا في العهد العثماني إلى قبيل الحرب العالمية الأولى ، وبعدها أخـــذ الغرب يتدخّل بشكل سافر في أحوال الحكومتين .

ومن الواضح « إذا تغيّر السلطان تغيّر الزمان » ليس هذا في العراق وإيران وحسب بل في كلّ بلاد الإسلام ذات مليارين من النفوس .

إنّ الغرب أخذ ببعـــض محاسن الإسلام فتقدّم ، كما قال الإمام علي (عليه السلام) : (الله الله في القرآن لا يسبقنكم بالعمل به غيركم)(١).

فهل الشورى لهم ـــ الآن ـــ أم لنا ؟

وهل الأحزاب لهم أم لنا ؟ وفي كتاب السبق والرماية ما يظهر منه أنّ الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) جعل المسلمين أحزاباً(٢).

وهـــل الأمّـــة الواحـــدة لهم أم لنا ؟ ـــ حيث وحّدوا أوربا وجعلوها بلداً واحداً بدون حدود جغرافية وسياسية واقتصادية . وأحيوا في أنفسهم الأخوة وأطلقوا الحريات(٣).

ونحن تركنا الحرّية الإسلامية والأخوة الإسلامية والأمّة الواحدة التي ورد ذكرها في صريح القرآن ولذا تأخرنا ولا نزال نعاني التأخّر إلاّ إذا رجعنا إلى القرآن ، كما قال الإمام علي (عليه السلام) ـــ .

نسأل الله أن يوفّقنا لما يحب ويرضى وهو الموفّق المستعان .

قم المقدّسة

محمد الشيرازي

١ ـــ نهج البـــلاغة : الكتاب ٤٧ . روضة الواعظين : ص١٣٦ . تحف العقول : ص١٩٧ .

٢ ـــ غوالي اللئالي : ج٣ ص٢٦٦ باب السبق والرماية حيـــث ورد عن الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) : (أنا مـــع الحزب الذي فيه أبن الأدرع) ، وكذا في جواهر الكلام باب السبق والرماية.

٣ ــ هذا لا يعني إنّ كلّ ما هو موجود من حرّية في بلاد الغرب هو حسن ، وإن الإمام المؤلف ذكر بعض مؤاخذاته على البلاد الغربية في كتابه : «الغرب يتغير» و«الفقه السياسة» وغيرهما.

الفصل الأول
سيرة وجهاد

ابن المجدد الشيرازي

كان للميرزا الكبير ــ السيد محمد حسن ــ ابن يسمّى السيد محمّد وهو أكبر من السيّد علي(١)، وكان يخدم الميرزا خدمة الولد لوالده ويعتمد الميرزا عليه ، فلمّا وقعت حادثة التنباك الشهيرة ، بعث البريطانيون بعصابة من الأشرار لمعاقبته ، فضربوه بسلاح كاسر فكسروا ترقوته ، وحيث لم يكن في سامراء معالج لمثل هذه الجروح ، أمر الميرزا بأن يحمل إلى كربلاء المقدسة للعلاج، لكنه توفي في الطريق على أثر الضربة ، وهو والد أحفاد الميرزا السيد جعفر والسيّد محمود والسيّد تقي والسيّد هاشم ، وأحفادهم موجودون بعضهم إلى الوقت الراهن في زنزانات صدام الرهيبة ، فإنّ عادة المستعمرين الانتقام ، وعندهم (تزر وازرة وزر أخرى) (٢) !! وفي قانونهم مباشرة الانتقام منهم بل ينتقمون ولو من الأقرباء لأنّ مقصودهم العنف والإرهاب ، خلافاً للقاعدة العقلائية والقاعدة القرآنية القائلة : (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرّية ضعافاً خافوا عليهم فليتّقوا الله وليقولوا قولاً سديداً)(٣).

لا يقال : مشاكل الآباء يرثها الأولاد .

لأنّه يقال : في القوانين الجزائية وفي سائر التشريعات ، القاعدة هي (لا تزر وازرة وزر أخرى)(٤) أما في التكوينيّات فهنالك السراية والتعميم كما في الأبناء ، فيما قرر من الكلية التي قد تكون من نصيب الأولاد شرّاً ، كما في هذه الآية أو خيراً كما

قال سبحانه: (ألحقنا بهم ذرّيتهم ومـــا ألتناهم من عملهم من شيء)(٥). وذلك كمن يزرع الورد يحصد ولده ريحه الطيّبة أو يحفظ بيض الحيّة حيث تفقس عن الحيات فتلدغهم ، هذا نصيبهم في الدنيا أمّا في الآخرة ، فالمكر السيئ لا يحيق إلاّ بأهله(٦).

أمّا لماذا جُعلت الدنيا هكذا ؟

ذلك لأنّ الكلّيات التي تسبّب اطّراد العلم تقتضي ذلك ، فإنّ الأمر دائر بين عدم اطّراد العلم وهو يوجب عدم استقامة معلومات الإنسان، وبين كونه متعدياً إلـــى غير المستحقّ ، والثاني أهون الأمرين ، وقد ذكرنا تفصيله في الشرح الموضوعي للقرآن الحكيم ، أمّا المستعمرون فيرتكبون ذلك بأبشع ما يمكـــن ، فإنّ العمل الواحـــد صورةٌ ، له منطلقات ، فالقيام مثلاً : عند مجيء إنسان صورته واحدة ، لكن قد يكون لأجل احترامه وقـــد يكون لأجل أخذ شيء مـــن الرف وقد يكون لأجل استقباله بالعتاب أو العقاب .

هكذا اغتيل المجدد ؟

لم يمض علـــى واقعة التنباك سوى وقتٌ قصـــير حتّى توفى الميرزا الكبير(٧). وقـــد راج أنّ البريطانيين أحسّوا بخطورة الميرزا في مستقبل العراق وإيران وأنّ بقاءه سيشكّل خطراً عليهـــم ، فدسوا إليـــه السمّ وقتلوه بتلك الصورة المعروفة .

وهذا هو ديدن الحكومات الاستعمارية، وهكذا قتلوا غاندي زعيم الهند على يد متعصّب هندوسي ، وكانـــوا يقصدون من وراء ذلك تمزيق الهند والحيلولة دون استمرار الوحدة بين الهند والباكستان.

فقد كان غاندي يصرّ على قيام الوحدة وأبدى استعداده لمنح محمّد علي جناح أوّل رئيس لدولة باكستان رئاسة الدولة الموحدّة.

ومضى الغرب في أساليبه في قتل العلماء عبر عملائه. وقد عاصرنا جرائمهم بحقّ السادة الكـــرام والزعماء الإسلاميين مـــن أمثال الأخ السيّد حسن في لبنان والسيّد موسى الصدر في ليبيا والسيّد محمّد باقر الصدر في العراق والسيّـــد مهدي الحكيم في السودان وغيرهم ممّا هو كثير ، والله يعلم كم قتلوا من العلماء ومن المثقفين .

وقد نقل السيّد المرعشي (قدس سره) إنّه عند اندلاع ثورة العشرينفي العراق بقيادة الشيخ محمد تقي الشيرازي أنه كان مع جمع من الطلبة والعلماء يبلغون الخمسمائة شخص ، ذهبوا إلى الجهاد ضدّ البريطانيين .

وكان السيّد المرعشي يسقي الماء ، فذهب ليأتي بالماء إلى أصحابه ، فلما عاد إليهم وجدهم قد أُغرقوا بعد أن فتح البريطانيون الماء عليهم ولم يبق منهم أحد ولم ينج منهم سواه لأنّه كان قد ابتعد عنهم .

وقد أكّدت الدلائل أنّ البريطانيين دسوا السمّ أيضاً إلى الميرزا الشيرازي الثاني قائد ثورة العشرين ، وكانوا قد دسوا هذا السمّ عبر عطّارٍ يبيع العقاقير ، فعندما بعث الميرزا إلى العطّار من يشتري له بعض العقاقير ، قدّم له العطّار ذلك السمّ فشربه الميرزا وهو يظن أنّه دواء ، فظهرت عليه أعراض السمّ وتوفى إثر ذلك .

كذلك قتلوا الآخوند الخراساني بعد قيام المشروطة بقيادته . فلم تكن عليه أعراض المرض في أوّل الليل ، وما إن مضى من الليل نصفه حتّى استيقظ الآخوند على آلام مبرحة في بطنه لم تمهله حتّى قضت عليه بعد ساعة . وبموته انهارت المشروطة وجاءوا برضا خان البهلوي ليحكم إيران .

ابن الميرزا يتعرّض للنفي

كان شعار البريطانيين عند مجيئهم إلى العراق هو « جئناكم محرّرين لا فاتحين » ولم يمرّ وقت طويل على الاحتلال حتّى تبيّن كذب هذا الإدّعاء ، فقد فرضوا على الشعب حرباً دامية فقتلوهم في ثورة العشرين ونفوا علماءهم ومراجعهم بعد أن أحسّوا بخطورة وجودهم بين الشعب .

وكان سلاح العلماء هو الآية الكريمة : (لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً)(٨) وكانت كافية لتعبئة الشعب ضدّ الوجود البريطاني.

ومن الأساليب التي قامت بها السلطات البريطانية هو إبعاد زعماء الثورة من أمثال الشيخ محمّد رضا ابن الميرزا الشيرازي الثاني(٩) والسيّد محمد علي الطباطبائي والسيّد الكشميري وارتكبوا أبشع الانتهاكات بحقّ الإسلام والمسلمين ، فقد قصفوا مسجد الكوفة بالقنابل ، وقد نقل لي أحد الثوار قال : رأيت قرب كربلاء

المقدسة جسداً مزّقه الرصاص حتّى تحوّل إلى شبه مصفاة ، وانتهكوا حرمات العشائر فقد جاءوا إلى الشيخ ضاري وأهانوه أشدّ الإهانات ، والشيخ صابر على أعمالهم، الأمر الذي أثار حفيظة أولاده فسارعوا للدفاع عنه، فوقعت مناوشة مع الإنجليز أدت في النتيجة إلى زهق بعض الأرواح .

وعندما أعلنوا عن العفو العام استثنوا البعض ؛ منهم الشيخ ضاري، مع أنّه لم يكن مسؤولاً عن قتل «لجمن» الضابط الإنجليزي .

وقد باءت محاولات الميرزا الشيرازي في إرجاع هؤلاء إلى أوطانهم بالفشل ، واضطرّ ابن الميرزا أخيراً أن يلتجأ إلى إيران ، فسكن هناك حتّى وافاه الأجل المحتوم .

سفر العم

في أواخر حكم العثمانيين عمّت الفوضى كلّ مرافق الدولة، وأعلنت الحكومة العثمانية عن سَوق الناس بصورة إجبارية نحو الجندية ، علماً بأنّ الإسلام لا يجبر أحداً على فعل معيّن ، كما ذكرنا تفصيل ذلك في الكتب المتعلّقة بالموازين الإسلامية ، وكانت الجندية في الجيش العثماني مشكلة معقّدة يعاني منها الجميع ، حيث كانت بمثابة الحكم على الفرد بالأشغال الشاقّة ، وكان الأفراد المشمولون بالجندية يتعمّدون فقأ إحدى عينيهم حتّى يتمّ استبعادهم بدلاً عن الجندية ، إلاّ أنّ عهد السلطان عبد الحميد شهد ما هو أفظع وأمرّ ، حيث كانوا يأخذون حتّى الذين أعموا عيونهم ويكلّفونهم ببعض الواجبات التي تناسبهم .

وفي هذه الأجواء الملبّدة جاءوا إلى عمنا السيّد عبد الله الشيرازي(١٠) فأرادوا أن يأخذوه قسراً نحو الجندية ، وكان الغالب أنّ الذي يساق إلى الجندية لا يعود إلى بيته . وجاء أخذ العمّ السيّد عبد الله خلافاً للمعاهدة التي وقعتها الدولة العثمانية مع الدولة الإيرانية يوم ذاك والتي بموجبها تمتنع الدولتان من تجنيد أبناء الجاليتين إلاّ أنّ الاستبداد لا يقرّ بالاتّفاقيات ولا يحبذ القوانين سيّما لو كان متلبّساً بلباس الدين ، لذا اضطر عمّنا إلى مغادرة العراق تخلّصاً من المصير المجهول الذي ينتظره في الجندية ، وبقي في المهجر مدّة ثمّ اضطر إلى أن يسافر إلى إيران تاركاً وراءه جميع أفراد عائلته ، ثمّ إنّه ذهب إلى مشهد الإمام الرضا (عليه السلام) وأقام هناك حتّى وافاه الأجل .

وهكذا انتهى مصير هذه العائلة بين التشرّد والموت في الغربة نتيجة السياسات الاستبدادية الـــتي تمارسها السلطات الحاكمة ، وقد مارس نظام صدّام السياسة نفسها فشرد الملايين من الشعب العراقـــي تحت مختلف الذرائع مستهيناً بالقيّم الإنسانية والقوانين الدولية .

ما تلقاه الوالد على أيدي الحكام

كان محلّ إقامة والدي (قدس سره) فـــي مدينة سامراء ، فطورد في الحرب العالمية الثانية حتّى اضطر للسفر إلى الكاظمية ، قال عن حياته في الكاظمية : «وبقيت في الكاظمية ستّة أشهر ولم يكن لنا قوتٌ إلاّ التمر الزهدي والخيار ، وقـــد استولى علينـــا القحط حتّـــى أصبحنا لا نستطيع الحصول على الطعام إلاّ على رغيف مـــن الخبز في اليوم الواحد ، وكنّا ندخّر هذا الرغيف للوالدة لأنّها كانت مريضة وكانت بحاجة إلى رعاية خاصّة» .

ثمّ انتقل الوالد إلى مدينة كربلاء وأصبح بمعية خاله الميرزا الثاني قائد ثورة العشرين ، يعاضده فـــي أمور الثورة ، وبعد موت الميرزا بالسمّ انتقل الوالد إلى النجف الأشرف ، وبقي هناك حتّى مات خالي السيّد ميرزا علي ابن السيد المجدّد الشيرازي ، فانتقل مرّةً أخرى إلى كربلاء بعد مطالبة ملحّة من قِبل السيّد حسين القمي (قدس سره) وبقي هناك حتّى أتاه الأجل سنة ١٣٨٠ للهجرة والذي كان عـــام حزن وأسى فـــي العالم الإسلامي حيث فقد أربعـــة من أعلام الدين والتشيّع هم الشيخ محمّد الخطيب ثمّ الوالد ثـــم السيّد أغـــا مير القزويني ورابعهم كان السيّد البروجردي رحمهم الله جميعاً .

ومكثت بعد الوالد سنوات فـــي كربلاء ، حتّى بدأت مطاردتنا ، فاضطررنا للانتقال إلى الكويت، أمّا أخي السيّد حسن (رحمه الله) فقد عذّبوه أشدّ أنواع التعذيب في العراق وذكرنا فصلاً في كتاب الصياغة الجديدة عـــن أنواع التعذيب وأساليبه(١١). ثم انتقل الأخ بعـــد إطلاق سراحه إلى لبنان حيث تمّ اغتياله على أيدي المخابرات العراقية ، ونقل جثمانه إلى مدينة قم المقدسة ودفن فـــي حرم السيّدة معصومة (عليها السلام) ؛ وفي ... أصبحت محاصراً في بيتي ، وجرى عليّ ما جرى فلو أردت أن أدون ما تلقيته مـــن أذى لما نقص عن كتاب من خمسمائة صفحة ، ولم يكتفوا بي بل وصل الأمر إلى

اعتقال ابنيّ السيّد مرتضى والسيّد مهدي واعتقال عدد من أقربائنا وأصهارنا وأصدقائنا(١٢) وتشريد بعضهم ، وكما منعوا الكثير من العلماء والطلاب حضور مجلس درسي وأجبروا العاملين في مؤسّساتنا على تركها بعد أن صادروا الكثير منها . وطورد ولداي الآخران ممّا اضطر أحدهما إلى الهجرة إلى الكويت والآخر إلى سوريا .

لقد دفعت عائلتنا ومنذ قرن من الزمن ضريبة انتسابها للمجدّد الشيرازي الكبير جدّ أبي ، وانتسابها للميرزا الشيرازي الثاني قائد ثورة العشرين خال أبي ، وضريبة ما ننشره من الكتب التوعوية والمؤسسات الخدماتية .

حكاية ابن العم

طورد ابن العمّ السيّد عبد الهادي الشيرازي(١٣) في سامراء حيث اضطر أن يقطن النجف الأشرف .

قال لي ذات مرّة : يوم وردت النجف الأشرف كان هناك «١٤» مدرّس أخلاق في النجف ، ولا يخفى أنّهم كانوا ذوي أعمال وكان بعضهم صاحب كرامات ، ويذكرون في هذا الباب قصصاً كثيرة مذكورة في أحوال أولئك .

ومن المعلوم أنّ : الحوزة العلمية بحاجة على الأقل إلى أربعة أنواع من الدروس .

١ ــ الأدبيات التي هي عبارة عن الصرف والنحو والمنطق والبلاغة وما أشبه ذلك .

٢ ــ الفقه والأصول بعرضهما العريض .

٣ ــ الأخلاق بمعناها الواسع .

٤ ــ تاريخ النبي والأئمّة (عليهم أفضل الصلاة والسلام) وذكر طرف من تاريخ الأنبياء .

هذا بالإضافة إلى ما يرتبط بهذه الأربعة مثل علم الرجال والدراية وشيء من الحساب والهندسة والفلك بقدر ما يرتبط بالفقه في المواريث والقبلة وغيرهما ، وإلى الدروس التي تسمى التطبيقية .

وقد كان كلّ ذلك مطبقاً في الحوزة العلمية في كلٍّ من النجف وكربلاء قبل نصف قرن كما شاهدنا دروسنا .

وكان من المتعارف أيضاً دراسة شيء من الطب «قانونجة» وشرح النفيسي وشرح المنظومة للسبزواري وشرح التجـــريد للعلامة الحلي وغيرها .

هذا ، وقد بقي ابن العمّ في النجف إلـــى حين توفّاه الله سبحانه ، وقـــد حضرت تشييعه ودفنه ، فانصبّت عليه وعلى عائلته المشكلات وأخيراً سجن ولده السيد إبراهيم وحفيده و لم يعلم عن مصيرهما حتّى الآن . نسأل الله أن يفـــرّج عنهما بذهاب الطاغية صدّام وجماعته ، وينجو السجناء الذين ناهز عددهم ـــكما تقول بعض الإحصائيات ـــ النصف مليون ، فيهم أكثر من عشرة آلاف امرأة، لا ذنب لهم سوى أنّهم من المؤمنين ويقولون ربّنا الله .

وقـــد تزامـــن تشييع الـــــسيّد عبد الهـــــــادي الشيرازي «قدس سره» مع احتفـــــالات حكّام العراق بانتصار انقلابهم الدموي في شباط(١٤) ممّا أثّر على عدد المشيّعين فلـــم يكـــن موكب التشييع يليق بهذه الشخصية العظيمة .

١ ـــ ولد سنة ١٢٨٧هـ وتوفى سنة ١٣٥٥هـ ، ويعدّ من تلاميذ والده والسيد محمد الفشاركي والشيخ محمد تقي الشيرازي، آلت إليه المرجعية بعد وفاة قائد ثورة العشرين.

٢ ـــ خلافـــاً للآية القرآنية المباركة : (ولا تزر وازرة وزر أخرى) سورة الأنعام : الآية ١٦٤ .

٣ ـــ سورة النساء : الآية ,٩

٤ ـــ سورة الأنعام : الآية ١٦٤، وسورة الإسراء : الآية ١٥، وسورة فاطر : الآية ١٨,

٥ ـــ سورة طور : الآية ,٢١

٦ ـــ إشارة إلـــى الآية الكريمة : (ولا يحيق المكر السيئ إلاّ بأهله) سورة فاطر : الآية ٤٣ .

٧ ـــ وكان ذلك سنة ١٣١٢هـ .

٨ ـــ سورة النساء : الآية ,١٤١

٩ ــ يقول عبد الله الهاشمي في كتابه الشجرة الطيبة ص٧٠ في وصف الشيخ محمد رضا الشيرازي : كان عالماً فاضلاً نبيهاً مجاهداً ، قام بدور كبير إبان جهاد والده ضد المستعمرين الإنجليز في ثورة العراق سنة ١٣٣٨هـ ، فكان ممن تدور عليه رحى الثورة، ونفذ أوامر والده في القيادة حتى تمكن المستعمرون من القبض عليه حيث نفوه خارج البلاد .

١٠ ــ ولد في الخامس من صفر سنة ١٢٩٤هـ ، يقول عبد الله الهاشمي في كتابه الشجرة الطيبة ص٦٦-٦٧ : كان رجلاً فاضلاً جليلاً ، وحُسنُ خلقه مضرب الأمثال إلى اليوم ، وكان ملازماً للمرحوم آية الله الميرزا محمد تقي الشيرازي .

١١ ــ الصياغة الجديدة لعالم الإيمان والحرية والرفاه والسّلام : ص٥٨٢ ــ ٥٩٣ مؤسسة البلاغ ، بيروت .

١٢ ــ للمزيد راجع كتاب : المظلومية ضريبة الوعي لعلي حسين عبد الله . وكرّاس مسيرة العالم المجاهد السيد مرتضى الشيرازي .

١٣ ــ ولد سنة ١٣٠٥هـ وتوفى سنة ١٣٨٢هـ ، ويعدّ من تلاميذ الآخوند الخراساني والشيخ الإصفهاني والميرزا النائيني . آلت إليه المرجعية بعد وفاة السيد حسين البروجردي سنة ١٣٨٠هـ .

١٤ ــ تزامن مع قيام عبد السلام عارف مع بعض الضباط بإنقلاب عسكري على عبد الكريم قاسم في ٨ شباط ١٩٦٣م .

الفصل الثاني
الوعي وآفاق الحل

ما نحذره قد وقع

يقول الشاعر :

أيّتها النفس أجملـــي جزعاً إنّ الذي تحذرين قد وقعا

وقد لا ينفع الصراخ ولا النياحة ، وإنّما العمل وحده هو النافع ، وبدونه قد تدوم المحنة إلى قرن آخر وقرنٍ آخر والعياذ بالله .

والعمل بسيط جدّاً وهو التوعية، قال الصادق (عليه السلام) :(ليت السياط على رؤوس أصحابـــي حتّى يتفقّهوا)(١)، والمراد بالفقه ، اللغوي لا الاصطلاحي ، والفقه اللغوي هو فهم الدنيا والدين(٢). قال سبحانه : (ومنهم من يقول ربّنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار أولئك لهم نصيب ممّا كسبوا)(٣).

وفـــي الحديث : (ليس منّا من ترك دنياه لآخـــرته ، ولا آخرته لدنياه)(٤) .

فأمّتنا اليوم هي أحوج ما تكون إلى الوعـــي والتوعية وبحاجة إلى حشد كـــلّ الوسائل الممكنة مـــن إذاعـــة وتلفـــزة وجرائد ومجلاّت وشبكات فضائية وشبكات الانترنيت ، وأخيراً وليس آخراً الكتب .

وبعد كلّ هذا الحشد من الأعمال المكثّفة لعل الله يُحدث بعده أمراً.

وقد ذكرنـــا حكاية «آجاثا كريستي» الكاتبة البريطانية التي ناهز عدد ما طبع لها المليار كتاب ، ولا نبالغ أبداً لو قلنا بأننا بحاجة إلى ثلاثة مليارات من الكتب لنشر الوعي الإسلامي ليس بين المسلمين وحسب بل بين غير المسلمين أيضاً .

فمليار كتاب لتفهيم الإسلام بالصورة الصحيحة ، ويجب أن ينطلق هذا الفهم من المصادر السليمة وهي الكتاب والسنّة المتواترة .

ومليار كتاب غايته احتواء البشرية في نطاق الإسلام .

ومليـــار كتاب باللغـــات الأجنبية المختلفـــة ليفهم الغرب ما هو الإسلام وليميزوا بـــين الإسلام الصحيح وإسلام بني أميّة وبني العبّاس وبني عثمان .

عند ذلك سيتحقّق لنـــا ما نصبـــوا إليه ، يرافقنا في مسيرتنا الوعد الإلهي الحقّ : (ادعوني أستجب لكم)(٥).

فلنبدأ من القطرة ..

لنبدأ من الكلمة ..

لنبدأ من الخطوة ..

فالقطرات تتجمّع لتكوّن البحار ..

والكلمات تلتقي لتكوّن الملاحم ..

والخطوات تتجمّع لتكوّن المسيرة ..

وهذه سنة الله في الكون .

أزمة الحضارة

اختلف الغربيون والمحللون السياسيون في سبب أزمّة الحضارة إلى أقوال ، وإنْ كان الكلّ متّفقين على وجود أزمة خطيرة يمكن أن تؤدي بالحضارة إلـــى الانهيار إن لم تعالج ، ولكنّ كلّ ما ذكروه من أسباب تعد جزئية وعللاً غير واقعية .

إنّ أزمة الحضارة واقعاً هي في الابتعاد عن الدين والقيم السماوية.

إنّ الحضارة الفعلية وإن استندت إلى العلم لكن هذا الاستناد غير كافٍ في حفظها ، لأنّ العلم إنّما يكفي فـــي الرقابة الظاهرة ، لكن الحياة غير قائمة على الظاهر فقط بل الأمـــر بحاجة إلى الباطن أيضاً ، والدين والإيمـــان بالله واليوم الآخر هـــو وحده الذي يكون رقيباً في الظاهر والباطن ، وأما غيره من القانون والشرطة والرقابة ـــ بالأحزاب وغيره ـــ لا يمكن أن يحفظ الباطن .

وقد قرأت فـــي تقريرين منفصلين أنّ أكثر فتيات بريطانيا وتايلند تُزال بكارتهنّ في الثانية عشرة من عمرهنّ نتيجة عوامل سوء التربية ، وربّما كان الآباء والأخوة هم أوّل مـــن يفض بكارتهنّ ، وهذا هو المشهور في غالب بلاد الغرب نتيجة الإباحة الجنسية

قانوناً أو واقعاً وكذلك السرقات المخفية والقتل الكثير والإضرابات العديدة التي هي آخذة في الزيادة يوماً بعد يوم كما يعترفون هم بذلك ولم يتمكّنوا من إيقافها عند حدّها بسبب عدم وجود رادع يمنعهم من ذلك ، فلا الدين المسيحي قادر على ردّ المسيحيين عن ارتكاب أبشع الجرائم بعد أن تحوّل كتابهم إلى كتاب لترويج هذه المفاسد ، فلوط يزني ببناته ـ والعياذ بالله ـ والسيّد المسيح يسقي الناس الخمر ـ والعياذ بالله ـ هذا ما تضمنه كتابهم المقدّس ، وقد نقلتُ قسماً من تحريف كتابهم المقدّس في كتاب «ماذا في كتب النصارى ؟» ، فكيف يمكن أن يكون هناك رادعٌ لمن يؤمن بهذه الكتب المحرّفة .

فالعامل الأقوى الذي يحصّن الناس من الانزلاق في متاهات المفاسد هو الدين ، لأنّه يؤجج في الإنسان مشاعر الخوف من الله ومن اليوم الآخر ، وهذا ما يمنحه الإسلام للمؤمنين .

فالسلطة مهما كانت قاسية لا يمكنها أن تكون رادعة ومانعة من انهيار روح الإنسان وانسياقه وراء الملذّات . وسوف لن يمرّ وقتٌ طويل حتّى تكتشف المجتمعات الغربية أنّ في الإسلام خلاصها وفي الإسلام مقومات نهوضها الحضاري .

فبالإسلام يمكن أن يتحصّن الغرب من الآفات والكوارث ، ويمكنه أن يسدل الستار على حربين عالميتين وحرب ثالثة قادمة . وقد نوّه القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة قائلاً : (ومن أعرض عن ذكري فإنّ له معيشة ضنكاً) (٦).

وما نشاهده اليوم في الغرب والشرق من عوامل الانهيار ليس إلاّ مصداقاً لهذا الضنك .

الإيديولوجية

يتحدّث الكثير عن مساوئ الإيديولوجية ، لأنّ المتبادر إلى الذهن هو الإيديولوجية الشيوعية والبعثية والنازية والشوفينية والفاشية ، لكن ليست كلّ إيديولوجية شريرة ، فالإسلام يمتاز على الإيديولوجيات بأنّ مصدره الوحي وأنّ المطبّق له هو رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأمير المؤمنين (عليه السلام)

حيث إنّهما قاما بنشر العـــدل والإخاء ، بتطبيقهما الصحيح للإســـلام ، خلافاً لممارسات البعض ممّن شوّهوا الإسلام بتطبيقهم الفاشل .

فقـــد بلـــغ التسامح برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه جعل اليهود أمّة مع المسلمين، كما ورد فـــي الصحيفة التي هي أوّل دستور للدولة الإسلامية ، وكان (صلّى الله عليه وآله وسلّم) ليّناً حتى مع أعدائه الذين شهروا السلاح بوجهه .

وفي مجال الحرّية قال تعالى : (لا إكراه في الدين)(٧)، وقال السيّد المسيـــح (عليه السلام) : (ولا تكونـــوا علمـــاء جبّـــارين فيذهب باطلكم بحقّكم)(٨)، فقد طبَّق بنو أميّة وبنو العبّـــاس وبنو عثمان الإسلام على أهوائهم، ولذا ظنّ الناس أن الإسلام هو ما طبّقه هؤلاء الحكام ، وإذا راجعنا إسلام الكتاب والسنّة وتطبيق الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) رأينا إسلاماً فـــي كمال الحرّية والرفاه والواقعيّة كما أشرنا إلى بعض بنوده في كتبنا الأخرى .

فالإيديولوجية الإسلامية بالمعنى الذي أوردناه هـــي الموافقة للعقل والفطـــرة ؛ وكلّ إنسان عاقل يميل إلـــى هـــذه الإيديولوجية خلافاً للإيديولوجيات الأخرى كالشيوعية وأضرابها التي لـــم تطابق الفطرة؛ والكلّ نافرٌ متبرمٌ منها .

والإسلام يعلو علـــى إيديولوجيات الغـــرب الـــتي تتّسم بالفساد والتحلّل الاجتماعي والأسري . فعلاج هذه الإيديولوجيات هو الفناء حتّى تتخلّص البشرية من شرورها .

وبنظرة فاحصة إلـــى التاريخ ينكشف لنا ذلك ، فإنّي أذكر إبان الحرب العالمية الثانية إنّ علاج النازية كـــان يكمن بذهاب هتلر الذي كان يمثل رمز وقوّة النازية الألمانية، وبعده استقامت الأوضاع في ألمانيا وأخذت تسير سيراً تصاعدياً في مناحي الاقتصاد .

فلو افترضنا بقاء النازية أو الفاشية إلـــى يومنـــا هذا ، فماذا كان سيحدث ؟ كان العالم لا يزال يعاني من ويلات الحروب والفتن .

فبموت هتلر انهارت النازية وتعافت ألمانيا .

وبموت موسوليني برصاص الشعب الإيطالي تعافت إيطاليا .

وبموت ستالين بواسطة طبيبه الخاص الذي حقنه بحقنة سامة أخذت روسيا تشق طريقها ، وسارت حتّى التقت بـ «غورباتشيف» أخر رئيس للاتّحاد السوفياتي السابق .

وهنا لابدّ من التنويه إلى أنّ ستالين اكتشف أنّه لا يستطيع مقاومة سطوة الرأسمالية الدولية بالاقتصاد وحده ، فحاول جاهداً إعطاء بعض الحرّيات القليلة ، فمنح الشعب حرّية العبادة وسمح بظهور الإسلام والمسيحية في بلاده ، وكان ذلك نكسة للشيوعية التي تعتبر الدين أفيون الشعوب .

إنّ عصرنا هذا هو عصر سقوط الإيديولوجيات ، فقد شاهدنا سقوط الماركسية(٩)، وشاهدنا عجز الإيديولوجية القومية في صراعها المرير مع إسرائيل ، وكان يفترض بالقومية أن تترك مكانها للإسلام حتّى يمكن فتح جبهة عريضة في قِبال الصهيونية العالمية(١٠).

وقد شاهدنا كذلك الإيديولوجية البعثيّة التي لم تتمكّن من مقاومة الدين الطبيعي للناس الذي هو الإسلام ، وازداد العراق بهذه الإيديولوجية تأخراً وتحطّماً مما هو مستمرٌ إلى الآن .

فالإسلام الوارد في الكتاب والسنة وحده قادر على دفع المسلمين إلى الأمام وتحرير أراضيهم لا الإسلام الذي يتخذه الحكّام ذريعة لاستبدادهم .

الإسلام كما نزل

قال النبي عيسى (عليه السلام) : (ولا تكونوا علماء جبّارين فيذهب باطلكم بحقّكم)(١١) .

وقد رأيت العراق بنفسي قبل خمسين عاماً ، لم يكن فيها معشار هذه المنكرات ، فالحجاب كان كاملاً ومعالم التديّن كانت ظاهرة على الناس ، والربا كان مرفوضاً ، أمّا عن الخمر والبغاء فلا وجود لهما .

وفي شهر رمضان كانت علائم الصوم سائدة في جميع الأرجاء ، فلا تجد من يُقدم على المجاهرة بالإفطار . وكلّ الناس كانوا يؤدّون الصلاة ، وهذه كلّها مظاهر التديّن التي كانت قائمة ثم تبدّل ذلك الأمر إلى العكس تماماً(١٢).

فلماذا حدث ذلك والإسلام هو الإسلام والقرآن هو القرآن والمسلمون هم المسلمون ؟

لقد نشروا في صفوف المسلمين المبادئ الهدامة من الشيوعية الشرقية والرأسمالية الغربيّة ، أضف إلى ذلك الصهيونية وأتباع الحكومتين كالبهائية والقاديانية ، وتلاحقت الأحزاب الكافرة في البلاد الإسلامية ، وأصبح للغرب والشرق موطئ قدم في البلاد الإسلامية ، وفي هذا النطاق يمكن مراجعة «مذكرات مستر همفر» و«مذكرات الداكوركي» حيث تُرجمتا إلى العربية ، وكان من نتائج تحوّل المسلمين في إيمانهم وعقيدتهم أن تبدّلت السلطة بينما كانت السلطة في البلاد الإسلامية بأيدي أمينة فتحوّلت إلى أيدي شريرة .

ومن المؤكّد أنّ الناس عرضة للتغيير ، فمن ناحية نجد ضعف المقتضي ومن ناحية أخرى قوّة المانع مما سبّب عدم تمكّن الدين من القلوب ، وعلى أثره عدم تمكنه في الأعمال .

ولا طريق لعودة الإسلام إلى الوجود إلاّ بتقوية الإيمان في نفوس المسلمين من جانب والوقوف قِبال الثقافة الشرقية والغربية ونتائجها من جانب آخر .

إنّ امرأة بريطانية واحدة اسمها «آجاثا كريستي» نشرت كتباً جاوزت عدد نُسَخِها المليار كتاب ، وقد قرأتُ عنها أنها كتبت «١١٤» كتاباً وتم ترجمة أحد كتبها إلى «١٠٣» لغات ، وناهز عدد ما طبع في إحدى الترجمات زهاء «١٥٠» مليون نسخة .

ومن الواضح إن هذا الزخم الهائل من الثقافة الغربية التي تنتشر في بلاد الإسلام عبر الكتاب وغيره من الوسائل لا تدع الإسلام يأخذ بالقلوب والأعمال . وإذا تغير السلطان تغير الزمان والعكس صحيح أيضاً حيث ورد : (كما تكونوا يُولّى عليكم)(١٣)، فكل من السلطة والشعب يؤثّر أحدهما في الآخر .

ونحن فـــي عالمنا الإسلامي نحتاج هذا السيل مـــن الوعي والنشر والطبع ؛ فمشكلة الأمّة الإسلامية هي مشكلة الوعي ، وطريق علاج هذه المشكلة هو نشر الوعي ، ومن وسائل النشر هو الكتاب .

وهذا هو طريق التغيير المطلوب لمجتمع إسلامي زاهر .

سبحـــان ربّك ربّ العزّة عمّـــا يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين .

قم المقدسة

محمد الشيرازي

جمادى الأولى ١٤١٩هـــ

١ ــ بحار الأنوار : ج١ ص٢١٣ ح١٢ ب٧٦ . وفـــي المحاسن : ج١ ص٢٢٩ ح١٦٥ ، إضافة (في الحلال والحرام) ، وقد وردت روايات كثيرة تحث على التفقه، قال الإمام الصادق عليه السلام : (لوددتُ أنّ أصحابي ضُربت رؤوسهـــم بالسياط حتى يتفقهوا) أصول الكافي ج١ ص٣١ ح٨ ، وقال أيضاً: (عليكم بالتفقه في دين الله تعـــالى ولا تكونوا أعراباً ، فإنه من لم يتفقه في دين الله لـــم ينظر الله إليه يوم القيامة و لم يُزكّ له عملاً) .

٢ ــ جاء في القاموس للفيروز آبادي ج٤ ص٢٩١ : «إنّ الفقه في اللغة هو الفهم» وكذا في التهذيب للأزهري ج٥ ص٤٠٥ .

٣ ــ سورة البقرة : الآية ٢٠١ .

٤ ــ وسائل الشيعة : ج١٧ ص٧٦ ب٢٨ .

٥ ــ سورة غافر : الآية ٦٠ .

٦ ــ سورة طه : الآية ١٢٤,

٧ ــ سورة البقرة : الآية ٢٥٦,

٨ ــ وسائل الشيعة : ج١٥ ص٢٧٦ ب٣٠ .

٩ ــ وقد تنبأ الإمام المؤلف بسقوط الماركسية قبل سقوطها بعشرة أعوام وقد ذكر ذلك في كتابه : «ماركس ينهزم» وقد طُبع عام ١٤٠٠هـ .

١٠ ــ وهذه فلسطين خير شاهد علـــى ذلك فقد عملت الإيديولوجيات المختلفة في فلسطين لكنّها لـــم تستطع أن تقدم شيئاً للشعب الفلسطيني بينما ومنـــذ انطلاق «حماس» في جهادها ضدّ إسرائيل شاهدنا التحوّلات والتنازلات الإسرائيلية ، لأنّ حماس استطاعت أن تفرض واقعاً جديداً على الأرض الفلسطينية وأن تجنّد الشعب الفلسطيني ضدّ الاحتلال . ذلك لأنّ الشعب مسلمٌ بطبيعته ، كذلك بقيّة الشعوب الإسلامية التي تنتهج طريق الإسلام، وقد ذكر الإمام المؤلف مؤاخذاته على القومية في كتابه : «القوميات في خمسين سنة» .

١١ ــ وسائل الشيعة : ج١٥ ص٢٧٦ ب٣٠ . كما ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام) : (اطلبوا العلم وتزيّنوا معه بالحلم والوقار ، وتواضعوا لمن تعلّمونه العلم ، وتواضعوا لمن طلبتم منه العلم ، ولا تكونوا علماء جبّارين فيذهب باطلكم بحقّكم) . الكافي (أصول) : ج١ ص٣٦ ح١ .

١٢ ــ وقد ناشد الإمام المؤلف «دام ظله» الحكّام في العراق لإصلاح ما أفسدوه، من خلال حواراته ونقاشاته ، وقد ذكر جملة منها في كتابه «تلك الأيام» .

١٣ ــ نهج الفصاحة : ص٤٦٢ ح٢١٨٢ .